فأعطى موسى صفورة ابنته» (الخروج ٢:٢١). «وأما موسى، فكان يرعى غنم يترون حميه كاهن مديان» (الخروج ٣:١).

اذن، يبدأ هذا العصر (عصر موسى) وخروجه مع أتباعه من مصر الى أرض كنعان في القرن الثالث عشر. وكان هؤلاء يتكلمون اللغة المصرية، نظراً الى تلك الفترة الطويلة التي بقوها في مصر، والتي تقدر بحوالى خمسة قرون، هي الفترة ما بين عصر يعقوب وبين عصر موسى. واذا كان يوسف وجماعته، لمّا وصلوا أرض كنعان لدفن يعقوب، لم يميّزهم السكان بشيء فارق، ونعتوهم بالمصريين، فلا شك في ان هذه المدة قد عمّقت تفاعل «بني اسرائيل» مع حضارة مصر وانصهارهم فيها، لا سيما انه لم تكن لديهم ـ وهم البدو الرعاة ـ أي حضارة تستثير مقاومة حضارية ازاء حضارة مصر المزدهرة. كما ان موسى نفسه، كما ذكر، قد شبّ في بلاط فرعون.

وحول محاولة ربط التوراة عصري ابراهيم وموسى، هناك بضع نقاط نودّ ان نقف عندها قليلاً:

○ ان محاولة الربط تقوم على أساس ان هناك امتداداً تاريخياً بين هذين العصرين، واللذين تبلغ فترة انقطاعهما عن بعضهما بعضاً حوالى ستة قرون، كما ذكرنا، من منظورين: (أ) قومي وعرقي، من جهة؛ (ب) وروحي ديني، من جهة أخرى. أمّا الامر الاول، فالربط العرقي أكثر من مشكوك فيه. وها نحن نرى ابراهيم يوصي عبده والقائم على بيته ان يأخذ لابنه زوجة من أرضه وعشيرته. وزوجة اسحق آرمية من فدان آرام: «وكان اسحق ابن اربعين سنة لمّا اتخذ لنفسه زوجة رفقة بنت بتوئيل الآرامي، أخت لابان الآرامي، من فدّان آرام» (التكوين ٢٥:٣٠). أي ان ابراهيم آرامي، عشيرة وموطناً ولغة. وذهب بعض الباحثين التاريخيين، ومنهم يهود، الى ان موسى كان حاكماً، أو كاهناً، مصرياً، كما روى المؤرخ اليهودي الشهير فلافيوس يوسيفوس، الذي عاش في القرن الاول الميلادي. وكذلك هذا ما ذهب اليه الفيلسوف اليهودي فيلون السكندري (٣٠ ق.م. ـ ٤٠ م.)[١٦].

○ كما ان الرباط القومي الذي يقوم، أول ما يقوم، على اللغة والأرض فمنفيّ أيضاً؛ اذ ان ابراهيم كان يتكلم الآرامية، بينما تكلم موسى[١٧] واتباعه المصرية القديمة منذ عهد يوسف.

واذا ما أتينا الى الامر الثاني، فسنرى ان موسى خرج على تعاليم ابراهيم الدينية ـ حسب التوراة ـ في ما يلي:

○ لم يقف عند حدود هذه التعاليم في الزواج الداخلي الذي أمر به ابراهيم ـ في ما ترويه التوراة ـ عندما أراد تزويج ابنه اسحق؛ بل ان موسى تزوج مرتين من امرأتين «غريبتين» على «بني اسرائيل»، احداهما كوشيّة (حبشية) والاخرى مديانية.

○ ان موسى لم يُختن كما أمر الرب ابراهيم ـ حسب التوراة ـ الّا بعد ان تزوج صفورة بنت يترون: «وحدث في الطريق، في المنزل، ان الربّ التقاه وطلب ان يقتله، فأخذت صفورة صوّانة وقطعت غرلة ابنها ومسّت رجليه، فقالت انك عريس دم لي، فانفك عنه. حينئذٍ قالت عريس دم من أجل الختان» (الخروج ٤:٢٤ ـ ٢٦).

وهذا النص، على ما فيه من الغموض، يدل على مدى غضب الرب على موسى غير المختون؛ غضباً استوجب ان يذبحه عقاباً له على عدم اختتانه[١٨]. هذا من الناحية الدينية؛ بينما نرى ان موسى، قبل ان يختن، «مقطوع» عن «شعبه»، حسب تعبير التوراة (راجع عهد الرب لابراهيم وكون الختان علامة عليه).